المرحوم الدكتور السيد مصطفى جمال الدين

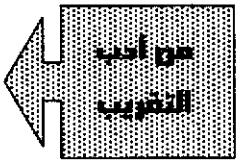

من أمس الأمة إلى غدها [1]

عقد في ديترويت بالولايات المتحدة مؤتمر إسلامي تحت شعار (واقع الأمة الإسلامية في العصر الحاضر) بمناسبة مرور ١٤ قرنا على وفاة الرسول الأعظم ٢٧ – ١٩٩١/١٢/٢٩ والقصيدة هي استعراض لهذا الواقع الذي تعيشه الأمة.

عُودي لأمسِكِ يَنطلِقْ منكِ الغدُ ... ما سَعَّ في دمِكِ النبيُّ محمدُ

يا أمّة يَيسَ الزمانُ، وعُودُها ... رَيَّانُ من نبع النبوّةِ أملَدُ

تسري بأعماقِ السنين جُذورُهُ ... وتشُدُّ أذرُعَهُ النجومُ فيصعَدُ

ما ارتاع من عَسفِ المُحولِ ولا انثنى ... بيد العواصفِ فرعُهُ المتأوّدُ

ومَذِ استكَتْ تلكَ الجنائنُ حولَهُ ... مِمّا يَعيثُ بها الخريفُ الأجرَدُ

ألقى رُواءَ الهَدي بين غُصونِها ... فأفاقَ حتى الهامِدُ المتقصِّدُ

وسَرَتْ بها بعدَ الذُبولِ غَضَارةُ الـ ... ـقرآنِ، تُخصِبُ رُوحَها، وتُورِّدُ

وتطلّعتْ فإذا بسُنّةِ أحمدٍ ... سُحُبٌ يَفيضُ بها النعيمُ ويَرفُدُ

وإذا النبوّةُ في الوجوهِ نضارةٌ ... والعقلِ نورٌ.. والقلوبِ تَوَدُّدُ

وإذا بصرعى الجاهليةِ في الوغى ... حُمَمٌ.. وفي ليلِ الهتيهةِ فرقدُ

وإذا بمكّـةَ وهـي صُـمٌ جَنـادلُ ... سُـودٌ، لمؤتلِـقِ الكَواكـبِ مَقصِـدُ

* * * * *

غـودي لدريـكِ لايَصُـدَّكِ أنّـهُ ... عَسِـرٌ.. ودربُ الآخَريـنَ مُعبَّـدُ

وبـانَ امسَكِ، مـن متـاعبِ شوطِهِ ... هَـرَمٌ.. ويومَـكِ، مـن صِقـالٍ، أمـرَدُ

فـالمجدُ لا ترقـى إليـه أمَّـةٌ ... لم يُبْـنَ فيـها بالضحايـا مِصعَـدُ

والفكـرُ لم يَقْبِسْـهُ يومـاً خـاطرٌ ... تـرِفُ المَجسّـةِ، مـن جَلِيـدٍ أبـرَدُ

عـودي، لأنّ غـداً طرَقْـتِ رتاجَـهُ ... بابٌ – بغير جَلالِ أمسِكِ – مُوصَد

يُبنى الجديدُ على القديم، وخيرُ مـا ... يَبقـى مـن النَسَـبِ الطريـفُ المُتـلِدُ

ويَغـورُ في النسيانِ وَهْـجُ حَضـارةٍ ... بَـرّاءَ، لم يَرفـع سـناها مَحتِـدُ

سُنَنُ الحياةِ: علـى الرمـالِ قِلاعُـها ... تـهوِي، وفي القِمَـمِ المُنيفـةِ تخلُـدُ

* * * * *

يـا أمّـةَ القـرآنِ لم يَذْبُـلْ علـى ... شَـفَتَيْكِ هـذا اللؤلـؤُ المتوقّـدُ

تنـدى بـه، حَضِـلَ البَيـانِ، تـلاوةً ... ويَنشُـهُ، عَطِـرَ الخشـوعِ، تهجـدُ

وتشِـبّ فيـهِ بـالفتوحِ سَـرِيَّةٌ ... ويَضِـجُّ مِنـهُ بالمعـارفِ مسـجد

ويكاد حتى الصَخـرُ لـو رَنَـتْ بـه ... آياتُـهُ، يُصغِـي لهـا، ويُـردِّد

هَـدَرتْ بـه لُغَـةٌ، كـأنّ حُروفَـها ... من طِيبِ ما حَمَلتْ، شَـذىً مُتجسِّد

تتسـاءلُ الكَلِمـاتُ، وهـي تُقلِّـبُهُ: ... مِـن أيـنَ هـذا الفـارسُ المتفـرِّدُ؟!

للشـعرِ تنسِـبُهُ؟ .. وتعـرِفُ أنّـه ... بَـوْحُ الحيـاةِ، وزَهوُهـا المُتمـرِّد

لكنّـه مـهما استـطالَ يَظـلُّ في ... حَصَـرٍ، أمـامَ شُـموخِهِ يتنـهّد

يـا أمـةَ القـرآنِ امسُـكِ مُخصِـبٌ ... بوَريـفِ مـا أعطـى ويومُـكِ أربَـدُ[٢]

مـا بـالُكِ اسـتدبرتِهِ وتركتـهِ ... يَختـالُ بـين بَنِيـهِ وهـو مُصفّـدُ
يُلقيـهِ في حَلَـكِ القلـوبِ تـبرُّكٌ ... ويُـذبُ بـين الشِـفاهِ تعـوُّدُ
ويكاد يستجدي الهُدى مِـنْ فِتيَـةٍ ... لـولا توهُّـجُ نـورِهِ لم يـهتدوا

* *

يـا أمّـةً بَـهَرَ الخُلـودُ لِداتِـها ... فيمـا أقـامَ بـها البُنـاةُ وشَـيّدوا
وتأنّـقَ التـاريخُ في خـطواتِهِ ... يجلـو بـها مـا شَـرّعوهُ وقعّـدوا:
العـدْلُ أسٌّ.. والعُلـومُ فريضـةٌ ... والحُكمُ شورى.. والسياسـةُ سُـؤدَدُ
والنـاسُ عنـد ولاتِـها وقُاتِـها ... شَـرَعٌ.. سـواءٌ عبدُهـم والسـيّدُ
والأرضُ أرضُ اللهِ لا (كسـرى) بـها ... يَـهبُ الحيـاةَ، ولا (هِرَقْـلٌ) يُسـعِدُ
و(محمـد) عَـرْشُ المَـالكِ دونـهُ ... قَـدرا، على خَشَـنِ الحَصِـيرةِ يرقُـدُ
و(عَليٌّ) ذو الثـوْبينِ يكسو (قمبرا) ... اغلاهمـا ولـه الرخيـصُ الأجـرَد
و(الراشِـدونَ)، خلائِفـاً وائِمـةً، ... مـابين اقـدام الرّعيّـةِ أعبُـدُ
حتـى إذا فَتـوا الفتـوح، وأسرَجوا الـ ... ـدنيـا، فَضَـاءَ بـها الزمـانُ الأسـود
وَرَهـتْ بوَهْـجِ ذبالـةٍ في (يَـثربٍ) ... غُـرّفٌ بـاعلا (طاشَـقَنْدِ) هُجَّـدُ
الفيتُـنا يحـدو طلائـعَ ركبنـا ... تيْـهَ، ويَغمرُهـنّ ليـلٌ سَـرمَدُ
وتشعَّبتْ طُـرُقُ المَتيـهِ، فَشـرَّقَ الـ ... ـاعمـى.. وإغَـرَّبَ في دُجـاهُ الأرمـد

* *

يـا أمّـةَ الإسـلامِ وقْفَـةَ حـائرٍ ... تزنِيـنَ فيـها: مـا يُريـحُ .. ويُجـهِدُ
عودي لأمسِكِ تركبي طُرُقَ الهدى ... فالأرضُ سَـهْلٌ، والركـائبُ حُشَّـد
وأمـامَ عَينـكِ حـاضِرٌ متقـدّمٌ ... فيـه مـن الرَشَـدِ الوفـيرُ الأجـوَد

فتخيّري ما تشهينَ، وجَدِّدي ... هِمَماً تكادُ من التغرُّبِ تهمُدُ
وتعدّدي طُرُقاً فلا ثوهِي السُرى ... سَعَةُ (المذاهِبِ) والمدى مُتوحِّد
فالرأي تصقُلُهُ العقولُ، تخالَفَتْ ... نظَراً، وقد يُصدِيهِ عقلٌ مُفرِدَ
والخوفُ ليس بأن نكونَ مَنائرا ... شتّى، تُضيءُ لنا السبيلَ وترشِدُ
الخوفُ أن يُبْنى فريقٌ مُسلِمٌ ... بحُطامِ آخرَ، مِثلَهُ ، يتبدَّد!
والخوفُ من لُقيا عَدوُّكَ شَاهِراً ... لأخيكَ صارمَ حِقدِهِ فتمجَّد!!
والخوفُ أنَّ (العُنصريّةَ) هوَّمتْ ... ترمَنأ.. فأيقظَها الدمُ المُستورَدُ
والخوفُ أنّ (الطائفيّةَ) تبتني ... أعشاشَها بين العقولِ فنحمَدُ
ونطيرُ أسراباً نُرفرِفُ حولَها ... ونعُبُّ فَضْلَ دمائِنا.. ونُغرِّدُ

* *

يا قومُ حَسبُكمُ التفرّقُ في المدى ... فالليلُ طاغٍ، والضَياعُ مُعربِدُ
والطائفيّةُ – وهي أسوءُ ما سعى ... أعداؤكم فيه – تُصانُ وتُعضَدُ
ويكاد (رَمزُ الطائفيّةِ) – وهو مَنْ ... تدرونَ بُغضاً للتديّنِ – يُعبَدُ
ما انفكّ يَلمِزُ مِن ذرى أحسابنا ... حَنَقاً، فـ (يُعجمُنا) لكم أو (يُهنِد) [٣]
نحنُ العراقُ شُموخُهُ وإباؤهُ ... وكريمُ ما أعطى بنوهُ وأنجدوا
عُربٌ تكاد عُروقُنا – ممّا بها ... من (دارِمٍ) و(مجاشِعٍ) – تتفصَّدُ
وجرى بنا الإسلامُ سَيلَ حضارةٍ ... وتمَدُّنٍ، يُرغي هُداهُ ويُزبِدُ
وامتدَّ وَهجُ (الفادسيّةِ) من دما ... آبائِنا.. حتى (الشُعَيْبَةِ) يَشهَدُ [٤]
أتكونُ مِحنَتُنا، لأنّ قلوبَنا ... من نبْعِ آلِ محمدٍ تترزوّد؟!
ويكون عُذرُ بني أبينا أنّهم ... خُدِعوا ببارقِ ما يَقولُ فأرعدوا؟

هَبْكُمْ صَدَقْتُمْ ما تنطّعَ فيه من ... حَرقِ اليهودِ مُنافقٌ مُتهوّد

أفتسكتونَ، وقد أحالَ خرائباً ... مَثوى الأئمةِ، جيشُهُ المستأسِد

حتى كأنّ بكربلاءِ (حائطَ المَبكى) ... وفي النجف (الكِنيست) يُعقَدُ!!

* *

يا رَملةَ النجفِ الشريفِ تذكّري ... ظمأ العيونِ، ففي يَدَيْكِ المَوردُ

حَنّتْ، فكان لها بذكركِ مَسرحٌ ... وَشَكتْ، فكان لها برملِكِ إثمِدُ[٧]

أشْرَقْتِ بي نوْراً، وغَرسي ناعمٌ ... وزهوتِ بي ثَمَراً، وعُودي أغْيَدُ[٨]

وَوَقَيتني غِرَرَ[٦] الشبابِ فما التوَتْ ... قَدَمٌ، ولا امتدّتْ لِناقِصَةٍ يَدُ

وعَبَرتِ بي نهْرَ الكُهولةِ، لم يَضِقْ ... ذَرعاً بصاريَتي الشِراعُ المُجهَدُ

حتى إذا (الستونَ) أثقَلَ جِذْعَها ... ثلْجُ الشِتاءِ، وباخَ ذاك المَوقِدُ

الفيتني ومَلاَب رَملِكِ في مدى ... عَينيَّ من زُهرِ الكواكبِ أبعَدُ

ووجدتني أنأى، وأحمِلُ في دمي ... من ذكرياتِكِ مابه أتجلّدُ

أعزِزْ عليَّ بأن أراكِ فَريسةً ... لِثيوبِ وَحشٍ لم يزلْ يترصّد

يُعميهِ أنكِ للعراقِ مَنارةٌ ... ولشعبِهِ عند الشدائدِ مُنجِد

وبأنّ حَمراءَ القِبابِ تُزيئُها ... لهُمُ، دماءُ سَراتِها، لا العسجد

فطغى ليَغسِلَ فيكِ عارَ هزيمةٍ ... ألقاهُ فيها مَنْ بهم يتمرّدُ

كَذَبَ الغرورُ، فلن يَهُدَّ (عَقيدة) ... سيفٌ لدى (أمِّ المعارِكِ) مُغمَدُ

الهوامش:

١ - أعاد قراءتها في المؤتمر الدولي الخامس للوحدة الاسلامية في طهران بمناسبة ولادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في ١٩٩٢/٢/١٤ ومن المؤسف ان القصيدة لم تسجّل كاملاً، فقد سقط من اولها ووسطها بعض الابيات فلاحظ.

٢ - أربد: مقحط .

٣ - اشارة إلى ماكتبه النظام عن شيعة العراق مرة بانهم عجم إيرانيون، ومرة بانهم هنود جاء بهم محمد بن القاسم لما فتح الهند.

٤ - القادسية المعركة المعروفة بين الإسلام والفرس. والشعيبة المعركة بين المسلمين والإنكليز، وكلاهما في العراق.

٥- الأثمد: حجر يكتحل به لشفاء العيون.

٦- عاش الشاعر في مدينة النجف من طفولته حتى شيخوخته وفي الأبيات اشارة إلى مراحل حياته فيها والأغيد: الناعم المتثني من النبات.

٧- الغِرَر: جمع غِرّة وهي غفلات الشباب وعدم خبرتهم.

٨- الملاب: طيبٌ يشبه الزعفران.